فعالية اللغة العربية

لأستاذ عدلان الفاسي

قضية العربية في المغرب قضية مزمنة والحق يقال ، فهي ليست بنت اليوم ولا ناشئة فقط عن أثر الاستعمار في وطننا ، ولكنها في اصلها ناشئة عن تقصير أجدادنا العرب في اكمال مهمة التعريب في المغرب من جهة ، وعن الركود الذي أصاب المغرب وسائر العالم الاسلامي من جهة أخرى . وقد وجد الاستعمار في هذين المظهرين لتخلفنا اللغوي والاجتماعي وسيلة حاول أن يستغلها ليجهز على وجودنا كأمة متحدة بل على وجودنا ككائن حي ويجعل منا امتدادا لوجوده بما يكونه من عناصر اللغة والفكر الذي هو محتواها .

وحينما حل عهد الاستقلال شعر المخلصون من أبناء الوطن بضرورة العمل على تقوية الكيان الوطني ، وتدعيم الوجود الذاتي الحر ، وكان أول ما فكروا فيه مسألة اللغة التي برزت في شكل الحاجة الى المغربة والى التعريب .

وطبعا فان كل عمل صالح لا يعدم صعوبات من نفسه والمعارضين من ذوي المصالح أو المستفيدين من الوضع الذي خلفه الاستعمار ، وهكذا فشل القائمون على العمل ، بينما أخذت الجهود المغربية جوانب متوازية لتحقيق الهدف المنشود .

وسأتحدث في غضون عرض المشكلة اللغوية وطرق والدينية والادارية والتجارية في جميع أوساط البلاد اصلاحها عن المجهود المبذول في سبيل تحقيق التعريب على أساس أنها لغة الاتصال بين مختلف ذوي اللهجات وتسهيل طرقه . وقبل ذلك أحب أن أؤكد – وان كان المحلية . وليس من المعقول ان يظل المواطنون في جهة الموضوع غير محتاج الى تأكيد – ان اللغة هي حياة ما ، بحاجة الى من يخاطبهم بلغة غير لغة الدولة وادهى

الامة وعنوان وجودها ، وأن كل أمة لا يمكن أن تتحقق من ذاتيتها الا في لسانها القومي المعبر عن تفكيرها التلقائي ، ولقد صدق «جوستاف لوبون» حينما قال : (اذا استعبدت أمة ففي يدها مفتاح سجنها ما احتفظت بلغتها) . واننى لارجو أن يتحد رجالنا على خدمة اللغة العربية وتمهيد الطرق لنموها وتطورها ، حتى يضمنوا للمغرب وللاسلام فيه ، حياة عربية موحدة ، تستكمل ما بدأه أجدادنا من غرس ناجع للعروبة في هذه الارض الحبيبة ، وبذلك تكمل وحدتنا اللغوية ، التي هي ضرورة لنا ولوحدة العالم العربي كله .

مشاكل العربية في المغرب

وطريقة علاجها

قلت ان مشكلة العربية في بلادنا مزمنة ، واعني بذلك ان التعريب الذي بدأه أجدادنا لم يتم في هذا الوطن ، فما يزال قسم من جبال المغرب لا يتكلم العربية ولا يتقن الكلام بها ، وهذا على العكس مما انتهى اليه الامر في كل من تونس وليبيا والبلاد المشرقية ، وليس معنى هذا انى أدعو لمحو كل لهجة وطنية ، فذلك ما ليس ضروريا ، وانما أعني انتشار اللغة الوطنية

من ذلك أن نحتاج أحيانا الى أن نوجه اليهم الكلام بلغة من لغات المستعمرين الذين استعبدوا بلادنا وأرادوا أن تكون لغتهم هي لغة الربط بين مختلف العناصر القومية .

انني أوجه قبل كل شيء اللوم على أجدادنا من رجال العرب الذين حملوا رسالة الاسلام والعربية لهذا الوطن، فانهم عوضا عن أن ينكبوا على العمل لاكمال مهمتهم التاريخية المقدسة ، شغلوا أنفسهم بالتطاحن على الغنائم وعلى مقاعد الحكم . وخلفوا في وطننا مشاكل اجتماعية لا يمكننا أن نتجاهل مصدرها اذا كنا نريد أن نبحث عن الداء ونلتمس له الدواء .

لقد وصل آباؤنا الى المغرب ليؤدوا رسالة الاسلام كاملة ولكنهم سرعان ما اتصلوا بالجبال المغربية ، فأخذ الحاكمون منهم يتملقون الجمهور ويبذلون أقصى الجهد لرضاته في سبيل الاستعانة به على خصومهم السياسيين ـ واشتغل الاشراف وذرية الصالحين منهم بتكوين ارستوقراطية خاصة لا تعنى بغير الاستغلال للشعب والإستفادة منه باسم الصلاح الموروث والسلالة المقدسة . وهكذا لم يواصل الابناء ما عمل له الآباء من نشر للدين وللغة القرآن في هذه الربوع ، ولولا طائفة من رجال العلم الذين وفوا للميراث النبوي الذي ورثوه . ولولا هذه المعاهد والزوايا التي كان يؤسسها أولئك المخلصون ، ولولا الجهود التي بذلتها الدولتان البربريتان المرابطية والموحدية في خدمة العربية ، لكان الامر اخطر مما هو عليه الآن . ولدخلت العربية في خبر كان في المغرب .

وقد زاد في الطين بلة ، الاضطراب الذي صاحب المغرب في تاريخه كله والذي انتهى الى تباعد الاتصال الفردي بين مختلف الاقاليم المغربية ثم انعزال بعض الجبال التي وان احتفظت بارتباطها السياسي بالدولة فقد عاشت اجيالا حياة خاصة بها تتطور في دائرة العزلة وتنسى ما عرفته من العربية التي لا يبقى لها وجود في غير المسجد والكتاب القرآني وعلى ألسنة بعض الفقهاء . (وبعض المشارطين) .

فاذا أضفنا الى هذا وذاك ، تلك العلة التي صاحبت الثقافة العربية في كل انحاء العالم ، وهي انها تطورت في دائرة ضيقة من العلماء واللغويين والمفكرين ، وبمعزل عن عامة الشعب ، الامر الذي ادى الى خلق ازدواج لغوي بين لغة الكتابة ولغة الحديث ، عرفنا حقيقة الازمان الذي اشرت اليه في مرضنا اللغوي ، وعرفنا كيف يجب أن نواجه المشكل على حقيقته لاصلاحه .

ثم هاجم الاستعمار التركي سائر بلاد العرب ما عدا المغرب . فاضعف ذلك العربية في مراكز ازدهارها في بغداد والقاهرة ودمشق ، في الوقت الذي أفل فيه نجم الاسلام والعربية في الاندلس ، وبقي المغرب لنفسه يقاوم تيار العجمة الذي يهاجمه من الداخل ومن الخارج، ومن الحق أنه قد انتصر عليه أو أوقفه على الاقل في أضيق حدوده . ولكنه لم يستطع أن يقوم بالمهمة على الوجه الذي كان من الممكن أن يقوم بها لو استمرت الاندلس في تقدمها ومراكز الشرق العربي في تفتحها، ومع ذلك فان صناعة الانشاء انحصرت في المغرب في القرن الماضي حسبما شهد بذلك بيرم التونسي الرحالة الذي جاب الآفاق ودرس المجتمعات العربية المختلفة .

وكانت لنكبة الاندلس آثارها المسترسلة على بلادنا فان الاسبانيين لم يقتصروا على حدود الاندلس الطبيعية ولكنهم تطلعوا الى التغلغل في بلادنا حيث بدأوا يقضون من أطراف أرضنا ، وهكذا نزلوا الى سبتة والى مليلية والى مراكز في الريف وفي الصحراء المغربية . حيث أصبحت العربية في هذا الوسط المغربي مجرد لهجة عائلية في احياء عمالية مستعبدة .

ثم هجم الاستعمار الفرنسي على وطننا فيما هجم عليه من بلاد العرب ، ووجد نقط الضعف السابقة فحاول الاستفادة منها للقضاء على العربية وفرنسة البلاد .

ان الاستعمار اللغوي والثقافي ، طابع بارز في أساليب الاستعمار الغربي الحديثة أتبعها في كل الاوطان التي نكبت به . وقد حاول المستعمرون دائما ان يجعلوا من شعوب المستعمرات أمما وأفرادا على صورة المستعمر وغراره ، فكانت لغة الفاتح هي المستعملة وحدها او مع اللهجات المحلية في كل مرافق الدولة وفي التعليم وفي المعابد احيانا ، وفي السياسة والتجارة بالاحرى ، وكان ابراز الاختلاف بين الطوائف المتساكنة في وطن ما ومحاولة تدخل المستعمر للربط

فيما بينها بحكمه وسياسته ولغته ، من الوسائل الفعالة فى السيطرة على الشعوب والهيمنة على مصيرها.

وبهذه الروح بدأ المستعمرون الفرنسيون والاسبانيون عملهم فى المغرب . فكانت الفرنسية والاسبانية لغة التعليم الاساسية فى كل المدارس التى تخرج الموظفين والمساعدين للدولة .

وكانت الادارات الحاكمة كلها لا تتكلم الا الفرنسية وهى العالم الذى يجد فيه العربى الحاجة الى ترجمان حسب تعبير الشاعر العربى .

ولن ننسى أبدا أننا كنا نضطر دائما الى التقدم للترجمان الحر الذى يجلس على الطاولة فى مباح ادارة البريد ليكتب لنا عنوان رسائلنا الى اخواننا داخل المغرب أو خارجه بالحروف اللاتينية مقابل بعض الفلوس التى تعطيها له والتى سماها بعض الظرفاء آنذاك بضريبة الجهل باللغة الاجنبية .

وكان المستعمرون الى جانب ذلك يبثون فى أذهان النخبة من رجالنا وطلبتنا ان الفرنسية مثلا ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها ، لان العربية لا تتسع لدراسة العلوم وللتعبير عن الافكار ، وليس لها ما للفرنسية من المرونة ومن القدرة على الاداء ، ولكثرة ما قيل هذا الكلام وكرر ، ولكثرة ما حيل بين المثقفين من اخواننا وبين لغتهم الاصلية ، ولكثرة ما فسر لهم الجهل الذى يشعرون به بالعربية بنقص فى اللغة نفسها ، اصبحت فئة من النخبة المغربية التى تحمل شهادات عليا . تومن بتلك الاغلوطة المندسة ، حتى كتب الشرايبى فى كتاب له بالفرنسية ان العربية لا يمكن أن تكون لغة المخاطبة للمغاربة ، لانهم لا يفهمون العامية فأحرى الفصحى التى تضيق عن التعبير عن الافكار والمقاصد ، وهذا ما جعل قسما من المعلمين يناقشوننا فى أيام دعوتنا الاولى للتعريب بعد الاستقلال ، بعجز العربية عن اداء المهمة التى تقوم بها الفرنسية .

وقد زاد المستعمرون بعد الاستقلال دعاية أخرى ، وهى تخويف المعلمين المغاربة الذين يعلمون الفرنسية فى المدارس المغربية من ضياع مستقبلهم فيما لو أصبحت العربية لغة التعليم فى جميع مواد الدراسة المغربية ، وهو وان كان تخويفا فى غير محله ، فانه قد اثر فى بعض اخواننا الذين لم يتأخروا عن مجادلتنا بهذه الحجة فى كثير من المناسبات ، أذكر منها مناسبة المحاضرة التى القيتها بنادى الامل فى الدار البيضاء منذ بضعة أعوام .

على أن المستعمر لم يقف عمله لهدم العربية عند فرنسة التعليم والادارة ووسائل النشاط العام ، ولا عند الدعايات المختلفة والتى تلبس لكل ساعة لبوسها ولكنه تجاوز ذلك الى محاولته الاجرامية لخلق مجتمع بعيد عن العربية وعن الاسلام . وذلك حينما وضع خطوط السياسة البربرية التى تبلورت فى الظهير البربرى المؤرخ بـ 16 ماى 1930 والقرارات والمنشورات التى أعقبت تنفيذه .

ولقد شرحت فى رسالة خاصة مطبوعة بمصر ، عناصر السياسة البربرية ومظاهر تطبيقها ، وتتلخص فى نقط ثلاث :

1 ـ مقاومة الاسلام وتمسيح البربر .

2 ـ مقاومة الشريعة الاسلامية عن طريق احياء الاعراف المحلية والاتجاه نحو القانون الفرنسى والمحاكم الفرنسية .

3 ـ مقاومة اللغة العربية ، والحيلولة دون البربر وتعلمها والكلام بها .

فأما ما يرجع للنقطة الاولى ، فقد تجلت فى تشجيع الكنيسة على عملها التبشيرى الذى كانت تقوم بتوجيهه الاسقفية العامة فى الرباط ونجد خبرها مفصلا فى مجموعة مجلة المغرب الكاثوليكى التى كانت تصدر فى العاصمة ، وفى محاولة الزام الشباب البربرى الاتصال بالرهبان ولبس القبعة وغير ذلك من المظاهر الصبيانية التى كان يدفع اليها حتم الاب فوكو المتجبر . ومن أعظم مظاهره ـ وهو الذى يهمنا هنا ـ منع السلطة للعلماء وشيوخ الطرق المخلصين من القاء الدروس الدينية فى المساجد وفى القبائل التى تدخل فى اطار الظهير البربرى ومن التجول فيها والاتصال بأفرادها واقفال العديد من المساجد والكتاتيب القرآنية وتشريد أئمتها والمشارطين فيها .

وأما مقاومة الشريعة فتتجلى طبعا فى اقفال المحاكم الشرعية واحلال المحاكم العرفية محلها ، مع وضع هذه المحاكم تحت اشراف الحاكم الفرنسى الذى يقوم بوظيفة وكيل الدولة والترجمان الذى يقوم بوظيفة

كـــاتب الضبط واستعمال الفرنسية وحـــدها وهى اللهجة المحلية فى كل أشغال المجلس العرفى ، وكتابة العقود فى الزواج والطلاق والميـــراث وغيره بغـــير العربية .

أمـا البرنامج المتبـع فى محـاربـــة العربيـة فى القبائل العرفية . فهو محو العربية من برنامج التعليم مطلقا وتكوين المدرسة البربرية الفرنسية فى جميـع سلمها الابتدائى والثانوى ، وعدم استعمال العربية فى أى اتصال مع البربر ، ومقاومة العطارين والمتجولين لئلا ينقلوا العربية الى الجبال ، ومراقبة الناس فى الشوارع وفى كل مكان حتى لا يتكلمـــوا العربية مـــع أخذهم بالعقاب اذا فعلوا ، ووضـع النحـو والمعاجم للهجات المحلية وكتابتها بالحروف اللاتينية ، الى غير ذلك مـن التدابير التى اتخذها المستعمرون للتفرقة بين مواطنينا عن طريق محو الاسلام والقضاء على العربية .

ومن حسن الحظ أن الفرنسيين لـــم يستطيعوا ان ينجحوا موقتا وبطريق القوة ، الا فيما يرجع لاقـــرار المحاكم العرفية .

أما فيما يرجع للغة العربية والدين الاسلامى ، فقد قاوم الشعب فى الجبال وفى الوهـاد حتى انتصر على المستعمرين ، وانقلبت مجهوداتهم ضدا عليهم . فاخواننا الامازيـغ أشد تمسكا بالـــدين المحمدى وبالعـــربية والشريعة الاسلامية اليوم من كل شعب عداهم ، وذلك ما يجب أن يعد من مفاخرهم ومن مفاخر الامة الاسلامية كلهـا .

لقد انتصرت العربية فى الجبال ، وذلك بانتشارها رغم السدود الموضوعة فى وجهها أيام الاستعمار ، وقد لاحظ الفرنسيون أنفسهم انتشار العربية من جهتين ، أولا عن طريق وفرة عدد المتكلمين بها الذى كاد يعـــم كل القبائل والقرى ، وثانيا ، عن طريق تسرب العديد من كلماتها فى اللهجات البربرية التى أصبحت تفوق نصف الكلمات التى يشتمل عليها معجـم المفردات المستعملة فى الحديث البربرى .

لقد قاومنا السياسة البـربرية بكـــل مظاهرها ، وتسربنا فى أشد أوقـــات الاستعمار الى المدارس التى أسسها المستعمر لتكـــون صرح بنـــاية الاستعمار ، فجعلنا منها والحمد لله قلاعا للعربية وللاسلام . وانتى لاحيى بهذه المناسبة اولئك الاخوان حواريى العـروبة الاولين من طلبة معهد آزرو ، الذين عملوا هنا على مقاومة كيد المستعمر والمحافظة للبلاد على وحدتها وكيانها .

وكم أجدنى سعيدا ومملوءا بالعزة والنخوة ، كلمـا زرت مدينة أزرو واجتمعت الى طلبة ثانويتها فوجدتهم جميعا يتحدثون بالفصحى ويناقشون بهـا فى كـــل الموضوعات التى تهم بـلادنا ، وقلت : هـذه المدرسة التى أرادها الفرنسيون لتكون رمز نجـــاح سياستهم المفرقة أصبحت بفضل شهامة اخواننا الامازيغ رمـــز وحدة البلاد وتعلقها كلها بالعربية وبالاسلام .

لنتصور ـ لا قدر الله ـ ان المستعمرين نجحـــوا فى تنفيذ خططهم الجهنمية ضد العروبة والدين المحمدى وتصوروا أن هذا البرنامج كان يحتـوى فى جملة مـــا يحتوى عليه ، على توسيع منطقة هذه السياسة حـتى تشمل المغرب كله ، وذلك عن طريـق اصدار قرارات وزارية متواصلة تدخل فى كل مناسبة الاقليـم الفلانى أو القبيلة الفلانية فى عداد الاقاليم او القبائـل ذات العرف البربرى . لنتصور ذلك كله . ولنحمد الله على أننا قد نجحنـــا فى مقاومة مجهوداتهـم ، ولنستبشر خيرا بمستقبل العربية فى بلادنا ان شاء الله .

الميراث الاستعمارى

لقد حصلنا على الاستقلال لهذا الجزء المهم من وطننا، ولكننا ورثنا عن الاستعمار فى هـذا الميـدان مخلفات لا تقل أهمية عن المخلفات الخطيرة التى نكافحها ونكاد نقضى عليها .

فهناك المناطق غير المحررة ، ومن جملتها فيما يهمنا الآن سبتة ومليلية والجـزر الجعفرية ووادى الذهب . وقد وقعت الهيمنة اللغوية من طرف المستعمرين على هذه الجهات ، ولا يمكن ردها لخطيرة العروبة قبل أن تعود الى حظيرة الوطن ، ولكن والحق يقال ، كان من الممكن للدولة أن تبذل جهودا لنشر الثقـافة العربيـة الاسلامية لمواطنينا فى هذه المناطق ، عـن طريق فتـح مدارس ومعاهد مغربية بها ، ولو على أساس التبادل الثقافى الذى تنظمه اتفاقيات بيننـــا وبين الاسبان ، وكذلك تشجيع مجموعة من ابناء هذه المناطق المغربية المستعبدة على اتمام دروسهم فى احـــدى المعـاهد او الجامعات المغربية فى القسم المحرر من وطننا .

والاخذ بطريقة التعاون الثقافي لا يمس أبدا موقفنا السياسي من هذه الاجزاء المغتصبة ، ولكن يساعد على الاحتفاظ بالروح القومية في وسط اخواننا ريثما يجعل الله لهم ولنا من الاستعمار مخرجا .

وهنالك قضية شنقيط او موريطانيا المعروفة بفصاحة أبنائها وعلو كعبهم في الادب العربي وفي الشعر ، وقد اقتطعها الاستعمار من المغرب ، واتبع فيها سياسة ادماج زمنا ما ، ثم قرر أخيرا أن يجعل دستورها ينص على أن الفرنسية هي لغتها الرسمية ، وبذلك وضع خطة لفرنستها النهائية باسم دستور واستقلال مزعومين لجمهورية اسلامية مصطنعة . وواجب المغرب اذن للمحافظة على عروبة اقليم من أعز أقاليمه هو الكفاح المستمر لتحرير شنقيط وعودتها لحظيرة الوطن حيث يشملها ما يشمله من بعث واصلاح في جميع الميادين .

وهنالك برنامج التعليم وسياسته التي كانت ترمي لفرنسة البلاد والقضاء على كيانها . وقد كان طبعا أن تبدأ الدولة بمجرد اعلان الاستقلال بالعمل على تحويل تلك السياسة وذلك البرنامج والاستعاضة عنها ببرنامج عربي وسياسة مغربية محض . وليس من الممكن أن نتجاهل المجهودات التي بذلتها وزارات التربية والتعليم المتعاقبة لانجاز الرغبة الشعبية التي يشعر بالحاجة اليها الجميع . كما أنه ليس من الممكن أن نتجاهل الصعوبات التي تواجه عادة كل عمل ايجابي في هذا القبيل .

فالخطط الاستعمارية من التغلغل في كياننا ومن الاشتباك بمجاري الحياة والاعمال الحكومية ، الى الحد الذي تجعل كل اصلاح في جانب مرتبطا بما يمكن أن يكون عليه الامر في الجوانب الاخرى ، فما كان التعريب ليتم ومغربة الادارة ما لم يقع البت فيهما كما أن المغربة ما كانت لتتم الا اذا وجد التقنيون باللغة العربية ، وهذا ما لا يمكن أن يقع الا باصلاح نيابة التعليم وتكوين الاطارات بالعربية ، الامر الذي لا يمكن بدوره أن يتم الا اذا تقرر تعليم العلوم بالعربية في كل درجات سلم التعليم، وهو ما لايتحقق الا بتخريج المعلمين والاساتذة بالعربية الامر الذي يستوجب تعريب التعليم العالي ، وهل يتم ذلك دون تكوين تعليم أساسي لتلامذتنا بالعربية ، وهل يقع تعريب الابتدائي وحده دون تعريب الثانوي ؟ وهل ينجز هذا كله دون أن تقرر وزارة المالية ضرورة اعطاء التعليم وتعريبه الاولوية في برامجها . وهل يمكن ذلك دون أن يقبل المشرفون على التعليم ضرورة المساهمة مع التخطيط الاقتصادي العام وادخال اعتبار الانتاج في برامج التعليم ، وكل ذلك يستوجب اعتبارات لا حد لها لمسائل توحيد التعليم وتنسيقه ، وتوزيع أقسامه . ووسائل تحويل التعليم الاصلي ، وما يكتنف ذلك كله من نقط يحوم حولها الجدل ويكثر فيها التأويل .

لقد واجه التعليم في المغرب مشاكل لا يهمنا منها الا الروح التي ملكت تفكير القائمين عليه . وهي : هل يجب البداية بتعميم التعليم ، أم باصلاحه ، وبعبارة أخرى هل يمكن تعميم التعليم واصلاحه دفعة واحدة أم لا يمكن ذلك . فاندفعت الحكومة اولا الى التعميم ثم أخذت تسير في التعميم وفي الاصلاح ، وكان النظر في أمر التعريب لا يعدو تجارب أولية ، فقد قرر تعريب بعض السنوات المدرسية . ثم وجدت الصعوبات أثناء الدخول للثانوي اذ احتاج التلامذة الى أخذ وقت لتصحيح ما عربوه حتى يسايروا الدروس الثانوية ، وتنبه المسؤولون بعد الى أن العقدة كامنة في ايجاد المعلمين بالعربية ، وذلك ما سارت فيه الحكومة الآن سيرا حثيثا اذا واصلته فسيؤدي لا محالة الى النتيجة المطلوبة .

وانه لمن الواجب علينا أن نعترف بما بذلته وزارات التربية والتعليم المتعاقبة من جهود لتعريب التعليم أو تكوين أسس سياسة صحيحة للتعريب ، منوهين بما قامت به من أبحاث وذللت من صعوبات قد يستهين بها غيرنا ، أما نحن فنقدرها قدرها ولا نألوا جهدا في التعريف بها . كما أن من الانصاف أن نبين ملاحظاتنا على المسؤولين في هذه الوزارات بروح لا يقصد منها غير المساهمة في البناء والارشاد لوسائله .

فمن الحق ان نعترف بأن التعليم الابتدائي الاهلي كان في شمال المغرب معربا اي ان مواد التعليم الابتدائي في التعليم الاسلامي كان باللغة العربية ، وقد فهم المسؤولون توحيد مناطق المغرب في التشريع وفي التوجيه على غير حقيقته . فعوضا من أن يحتفظوا في مدارس الشمال بالعربية وحدها في الابتدائي . ريثما يتاح لهم تعريب التعليم في جميع أجزاء البلاد ،

وفى جميع درجاته ، أضافوا الفرنسية او الاسبانية الى العربية فى مدارس الطور الاول ونفس الساعات التى لها فى جنوب المغرب . وكان من الواجب أن تؤسس مجموعة مدرسية عصرية على غرار مدارس محمد الخامس أساس التعليم بها العربية ، ثم يعمل على تكثير عددها فى جميع انحاء المملكة بقدر ما تهيئه من معلمين ويرد الى مناهجها شيئا فشيئا ما كان موجودا من المدارس العربية الفرنسية او الفرنسية المحض ، ولكننا ذهبنا بعكس ذلك نعمم التعليم الفرنسى العربى فى عموم المغرب ، وننقل الفرنسية والاسبانية بسرعة الى شواهق جبالنا التى يجب أن نبذل كل جهد لنشر العربية فيها .

انه مهما تكن الجهود التى نبذلها للتعريب والتى نتحدث عنها ، فليس من الضرورى أن نواصل فتح المدارس باللسان الاجنبى ، ويجب أن نحل مشكلة المعلمين بالعربية بجميع الوسائل الممكنة .

ولاكون اكثر وضوحا ، أحب ان أزيد فى البيان فأقول : ان للتعريب جوانب عديدة يتناولها الباحثون اليوم عندنا ، ولكن هنالك جانبا لا يتنبه اليه الا القليل، وهو حماية طائفة من الاطفال الذين أسعدهم الحظ فلم يستعجموا من اول يوم وتلقينهم الدروس الاولى بالعربية وتوقيف الاسبانية والفرنسية عند الحد الذى وصل اليه الاستعمار ، ان فى ذلك الخطوة الاولى للتعريب الحقيقى لمجتمعنا .

واني لاعلم ان هنالك مفكرين يثيرون هنا قضية تعدد اللغات فى التعليم الابتدائى واحرى ما يفرضه ، وسيعرضون علينا كل الحجج والادلة التى قيلت فى صحف الفرنسيين والانكليز والجمعيات التى أسست لفائدة التثنية اللغوية فى التعليم ولكننى أقول لهؤلاء جميعا . مهلا على رسلكم فان القضية التى يدافع عنها الفرنسيون ليست الا جانبا من جوانب الوحدة الاوربية التى يعمل لها جمهور قوى بدافع عوامل اقتصادية وسياسية لا وجود لها لدينا . ومهلا على رسلكم ايضا فانني لا أريد أن أنقص من قيمة تعلم اللغات وآثارها على التقارب الانسانى والثقافى وعلى توسيع افق المعرفة عند الانسان ولكننا الآن فى مرحلة تدعونا الى الحذر والى العمل بجد لندافع عن وجودنا ، وان التجربة بينت أن الفرنسية او الاسبانية حينما تدخل للمدرسة الابتدائية مع العربية وبنفس الدرجات التى دخلت بها فى مدارسنا تصبح غولا تأكل العربية وتقتل الذوق العربى فى نفس التعليم ، وانى لا اجهل أن العربية فى طورها الحاضر لم تساير بعد فى اساليب تعلمها وتعليمها الطرق التى تعلم فيها تلك اللغات الاجنبية ، وذلك ما يوجب علينا أن نفسح للعربية المجال حتى تقف على قدميها ونفسح لابنائنا المجال حتى يخرجوا من الابتدائى وهم قادرون على حماية انفسهم وافكارهم الحماية اللغوية التى هى عنوان دوام الشخصية .

واذن فالواجب على الدولة ، أن تضيف الى جانب المدارس العادية الآن ، تخطيطا لتأسيس مدارس عربية ليس لها من اللغات الا ما يمكن أن يكون فى مثيلاتها من المدارس فى البلاد التى تعنى بنفسها وبمقوماتها ثم تعمل على أن تجعل من هذه المدارس نقط الزيت التى تعم كل البلاد . وليس من المعقول أن ندع هذا النوع من التعليم لبعض المتطوعين من مؤسسى المدارس الحرة الاصلية ، أو الكتاتيب المجددة . وان كنا نقدر أهمية الدور الذى قامت وتقوم به هذه المدارس فى المحافظة على العربية وننوه تنويها عاطرا بالمساعدة التى تلقاها من ميزانية وزارة التربية الوطنية والتى لولاها لما استطاعت مواصلة أداء رسالتها على الوجه المرغوب فيه .

وما دمنا نتكلم على هذا الجانب من جوانب التعريب فيجب أن نتنبه الى ضرورة العمل على نشر العربية بكل الوسائل المثيرة والتى تدخل فى اطار التربية الاساسية ولا سيما فى الجبال البربرية ، وانى لاقترح على وزارة الانباء ، أن تنظم فى الاذاعة المغربية برنامجا يوميا لتعليم لغة الكلام العربية عن طريق الاثير لاسيما وان آلات الاستماع اليوم موزعة بكثرة فى كل البوادى ، فاذا أعطى قسم لتعليم لغة الكلام العربية ضمن الاذاعة فسيكون له اقبال كبير من اخواننا الذين يهمهم أن يتقنوا العربية فى الجبال .

على أن الاذاعة تستطيع أن تقوم بدور فعال فى تحسين لغة الكلام ، وفى اذاعة المفردات التقنية ، وكذلك التمثيل والسينما وغيرها من وسائل الدعاية التى سهلت الاتصال بين الناس .

وأيضا فان العناية بالمعاهد الدينية والمساجد ، وتكوين المرشدين الاسلاميين الفصحاء ، ومساعدتهم

على القيام بمهمتهم داخل الاراضي المغربية لن يخدم الدين والخلق فقط ، ولكنه سينشر العربية ويعين على تعمق الجمهور لفهم مفرداتها ، انه ليس هنالك شيء ألصق بحياة الفرد وسلوكه كالدين الذي يتغلغل في الفكر ويفرغه اللسان وتعمل به الجوارح . والعلماء والائمة المرشدون هم التراجمة الذين ينقلون فحوى ذلك وقالبه للفرد وللمجتمع .

مجهودنا بعد الاستقلال

لقد ورثنا بعد الحماية جهازا اداريا ضخما كان جل رجاله من الفرنسيين وكانت لغته هي الفرنسية وحدها، ولا تستعمل العربية الا في حاجة تفهيم الاهالي بعض المسائل او ابلاغهم بعض الاوامر . ولقد بدأنا مغربة الادارة عن طريق حشد المثقفين وانصافهم من اخواننا وجلهم والحق يقال ممن درسوا الفرنسية ولم يتقنوا العربية الا قليلا ، ولكن المغربة لم تستطع ان تتم كلها لان اطاراتنا الفنية ضعيفة ، الامر الذي فرض علينا الاحتفاظ بقسط لا بأس به من الاجانب في انتظار تكويننا السريع او البطيء . وقد خيل الى المسؤولين منا زمنا ، أن هذا التكوين يجب أن يكون بالفرنسية والفرنسية وحدها ، نظرا للفائدة المتوخاة لانه ما دمنا محتاجين الى عديد من الفنيين الاجانب وما دام هؤلاء في ادارتنا فليس من المعقول أن نأتيهم بموظفين فنيين مغاربة متعلمين بغير الفرنسية او لا يعرفون الفرنسية، وهذا الخطأ في التقدير ضيع علينا وقتا كان يجب أن نوزع فيه اخواننا على كل الجامعات وبكل اللغات . وفي انتظار وجودهم يجب أن ننفذ اسس التعريب التي لا بد منها ، حتى يدخلوا على أساس العمل بلغتهم واذا كان لا يزال هنالك اجانب فمن المستحسن أن يشجعوا على تعلم العربية ، او عند الضرورة تستعمل الترجمة في أضيق حدودها .

واذن فالقضية قضية اقتدار الموظفين المغاربة الموجودين والذين سيوجدون ، على القيام بوظيفتهم باللغة العربية ، ولو كانوا قد درسوا فروع اختصاصهم بمختلف اللغات الاجنبية .

هذه ، الى جانب مجهود وزارة التربية هي نقطة البداية التي قامت بتنفيذها وزارة الوظيفة العمومية والاصلاح الاداري ، وهي فكرة طالما راجت في كتاباتنا وفي مناقشاتنا والتي دخلت ضمن برنامجنا . والمرحلة الاولى في هذه الخطة حسب ما جاء في مقدمة كتاب المراسلات الادارية الذي نشرته الوزارة وهي أن تقترح الوزارة على موظفي مختلف الادارات من مواطنين ومواطنات ان يعملوا على تسخير اللغة العربية واستعمالها كوسيلة واحدة فيما ينجزونه من اعمال ، فارضة على نفسها كذلك أن تعمل جادة في رفع مستوى تكوين اولئك الموظفين حتى لا تبقى لغة التخاطب بينهم وبين المواطنين الذين يطرقون أبواب مكاتبهم الادارية فحسب ، بل لتصبح وحدها ـ من غير اي منافس ـ لغة المراسلة ولغة الاتصالات الادارية .

وقد أرادت الوزارة قبل كل شيء أن تحرر موظفيها من مركب النقص الذي يشعرون به نحو لغة بلادهم ونحو أنفسهم ، ونظمت في سبيل ذلك مئات المراكز التعليمية لموظفي الاطارات الوسطى والثانوية ، وفرضت النجاح فيها كشرط لكل تقدم في الاطار ، وستفرض ذلك نفسه على موظفي الاطارات العليا . ان هذه الخطوة الجريئة متى بلغت مداها ستساعد على تعريب الادارة في أقرب وقت ممكن ، وستسهل على المتخرجين بالعربية او المتقنين للعربية العمل في جو عربي لا تسد عليه العجمة باب التفتح والنمو .

ومن الانصاف أن نقول ان هذه الخطوة تفقد قيمتها اذا لم تتم الوزارة ما وعدت به من خطوات أخرى في سبيل تعريب الادارة المغربية والقائمين عليها ولا سيما في سبيل تعريب المسؤولين الكبار الذين يفكرون ويكتبون بالفرنسية ، فمن العار أن تظل المشروعات التي تعرض على الدولة تكتب بالفرنسية ثم تنقل بعد ذلك الى العربية ، واسلوبها الفرنسي باد في اللغة وفي الفكر .

وكان يقف أمامنا القضاء العصري بجميع جهازه ، ذلك القضاء الذي ورثناه عن الاستعمار بقداسته واجراءاته ولغته وبقضاته الاجانب ايضا ، ومن حسن الحظ ان القانون الذي صادق عليه البرلمان اخيرا قضى بتعريب القضاء في جميع درجاته فانتهت بذلك خرافة الضرورة الفنية في هذا الجانب من نشاطنا القومي .

ومن حسن الحظ ايضا أن القسم العربي لكليتي الحقوق والآداب والمدرسة الادارية العربية بدأت تعد الكثير من

حملة شهاداتها بالعربية المحض أوالمختلطة ، ولكن هؤلاء انفسهم يظلون فى اثناء ممارستهم للعمل بحاجة الى جو عربى لا بد أن يساهموا فى خلقه ، ولا بد ان تكـون نية الحكومة متجهة بصفة جدية الى وجوده ، فالقوانين المغربية اليوم لم تجمع كلها ، ولم يعرب ما هو موجود منها . مع أن ذلك فى مقدمة الخطوات التى يجب أن يعمل لها المجاهدون فى سبيل التعريب بالمغرب .

مشاكل اللغـــة العربية

والآن لنعرض الى جانب آخر من جوانب العمل على ضمان مستقبل زاهر للعربية فى بلادنا وفى كل البلاد ، وهذا الجانب مهم جدا لانه يتعلـق بحيـــوية العربية ومقدرتها على التطـور ومسايرة روح العصر ، دون أن تنقطع الصلة بالماضى او تخرج عن روح الفلسفة اللغوية التى سايرتها دائما .

واذا نظرنا الى لغة العرب اليوم ، نجـــد من جهـــة العامية التى تتحدث بها كل بلـد أو اقليـم من أقـاليم العرب ، واللغة الفصحى القديمة التى تدرسها ثلة من المثقفين وتحتاج فى تفهمها الى حل المفردات ثم تجميـع المعنى المقصود ، من جهة ثانية ، وبينهما هذه الفصحى الحديثة التى هى لغة الكتابة والتحرير والخطابة ، التى هى فى الواقع محاولة ترمـــى الى المحافظة على اللغـة القديمة ورفع مستوى العامية اليها او كانها صلح ما بين العامية والفصحى .

وقد استطاعت اللغة العربية العصرية أن تحـافظ على الطابع العربى فى النحو وفى الاساليب البلاغية ، وبذلك يمكن ان يقال بهذا الاعتبار انها امتداد الفصحى القديمة فى شكل حديث او تعبير عربى عـــن أسلوب الحياة الجديدة ، ولكن هـــذه الفصحى الحديثة ليست تلقائية بالمعنى الذى يجب ان تكون عليه اللغة الثانية، ان فيها ولا شك نوعا من الاصطناع الذى أحـوج اليه الدرس والتعمق واكتناه أسرار اللغة ، وأحيانا التعبير عن الفكر الذى يفكر بلغة أخرى ، ومع ذلك فاذا نحن قارنا علاقة العربية الحديثة بلغة القرآن نجـد الصلة متينة ومستمرة بعكس ما جـــرى للعبرية الحديثة التى ابتعدت كثيرا عن لغة التوراة ، لأن أدباء العربية والمعنيين بشؤونها اللغوية هم قبل كل شىء رجـــال العربيـة رجال اللغة ولا أسرارها .

ولغتها بعكس الواضعين للعبرية الحديثة لم يكونوا من والمسألة اليوم ، هى كيف يرتفع مستـــوى العربية الجديدة ويسع إفق دلالاتها حتى يشمل كـــل جوانب الحياة والنشاط العصرية مع المحافظة لها على هذه الصلة المتينة بالضاد القديمة وبالبيان القـرآنى المعجز ؟ ثم كيف يمكن العمل لتصبح اللغة الفصحى الحديثة لغـة الخطاب والمعاملة فى الوقت الذى هى فيه لغة الكتابة والخطابة والتأليف .؟

وهذا ما يشغل المصلحين الذين يعنون بمصير اللغة العربية فى بلادنا وفى سائر بلاد العرب ، وقد أسست وزارة التربية الوطنيةمعهدا للتعريب (I) ليقوم بالبحث والدراسة لحل مشاكله وهـــو فى اتصال مستمر مـع المجهودات العربية فى البلدان الاخرى عن طريق المكتب الدائـم لمؤتمر التعريب وقد عقـد هذا المكتب عـــدة مؤتمرات للتعريب فى الرباط وأقرت مناهج عملـه فى اطار الجامعة العربية .

وقد قسم معهد التعريب ميادين العمل لصالح العربية الى قسمين : قسم داخلى للغة وقسم خارجى عن اللغة .

وسنجارى هذا التقسيم فيما نتناوله من بحث فـى هذا الحديث .

القسم الداخلى

أ ــ الكتابة ، لقد شعر العرب منذ بداية النهضـة الحديثة بالنقص الذى يجدونه فى الكتابة العربية التى تحتاج الى الشكل ، ولا يمكن قراءتها قراءة صحيحة الا به ، ولا يمكن للكاتب أن يشكل كتابته الا اذا كـــان عارفا بالنحو وقواعده ، بينما نجد اللغات الاجنبية اليوم يتقن اربابها القراءة والكتابة على الوجه الصحيح ولو لم يتبحروا فى معرفة اللغة ولم يتقنوا نحوها ، حتى انه يمكن للاجنبى الذى لا يعرف لغة ما من اللغات الراقية أن يتعلم القراءة فى مدة بسيطة ولو كان لا يفهم مـــا يقرأ ، هذه هى المشكلة مجملة ، وان تفصيلها يحتـاج الى وقت لا يتم فى ظروف هذه الفصول .

الطبـاعـة

ومثل ما تقدم يقال فى الطباعة باللغة العربية وفى الآلة الكاتبة وكل اخراج عربى عن طريق الآلة .

وتطرح قضية الطباعة العربية مشكلتين أساسيتين :

(I) أحيل هذا المعهد الى مركـــز وطنى للتعـريب ليشمل نشاطه كل مرافق الدولة فى حقل التعريب .

1 ـ كيف يمكن للعربى أن يقرأ ليفهم ، لا أن يفهم ليقرأ .؟

2 ـ كيف يمكن ذلك وآلات العالم العيارية لا تحتوى على أكثر من 90 حرفا ، بينما شكل أبسط نص عربى يقتضى 475 حرفا ؟

فما هى طرق التغلب اذن على هذه الصعوبات ؟

لقد حاول الكماليون ان يتغلبوا على ذلك فى اللغة التركية بالغاء الحروف العربية واحلال الحروف اللاتينية محلها ، أليس من الممكن ان نعمل مثلهم فنتخلى عن الكتابة العربية ونعوضها بحروف لاتينية تبدأ من اليسار وتضع الحركات بجانب الحروف ؟ ذلك ما دعا اليه المبشرون والمستشرقون وبعض ذوى النيات الحسنة من العرب الذين لم يتسع أفق تفكيرهم للبحث عن تحسين الكتابة العربية بنفس الروح التى خلق بها أسلافنا هذه الحروف ثم نقطوها ثم شكلوها وسهلوا الى حد ما طريقة استعمالها .

وقد دعا عبد العزيز فهمى الى لاتينية الكتابة العربية جهرا فى أروقة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ولكن الاغلبية الساحقة من العرب رفضوا النظر فى هذا الاقتراح مقتنعين بأن تطبيقه سيضيع روح اللغة العربية ويفوت على العرب الاستفادة من تراثهم الضخم الذى تمتلىء به رفوف الخزائن الخاصة والعامة فى كل العالم ، وقد اعترف الاستاذ ماسينيون بأنه كان فكر على اثر ثورة كمال أتاتورك والغائه للحروف العربية فى تركيا أن من المناسب أن يصلح الايرانيون والعرب كتابتهم بطريق الاقتباس من الحروف اللاتينية ولكنه عاد فوجد أن لاتينية حروف الهجاء العربى يهدم أساس النحو العربى الذى هو الاعراب ويضيع على العربية سرها ، لان هذه اللغة السامية الخالصة لغة الشهادة يجب أن يحافظ عليها كما هى لتؤثر على تكوين عالم حقيقى للغة العالمية المقبلة ، وترك الهجائية العربية يؤدى الى ضعف الخط العربى الذى هو فى الاسلام المجرد ، والذى يعيش اليوم من بغداد الى المغرب .

وهكذا فلم يعد محل للبحث عن لاتينية العربية وانما أخذ الباحثون يعملون على ايجاد اصلاح للكتابة العربية ، وللطباعة العربية يهمنا منه هنا الاصلاح المغربى الذى عرضه الاستاذ احمد الاخضر والذى كان نتيجة مجهود دام سبعة أعوام ، والذى اعتمدته فيما يظهر وزارة التربية الوطنية ، وان كانت آثاره لم تظهر فى التطبيق بعد . ويقوم على أساس ضمان الحاجة العصرية دون المساس بسنة الكتابة العربية . وطريقة الاخضر هى أن الحروف العربية تنقسم الى ثلاثة عناصر : الحرف ، والصلة ، والالحاق ، وهذا الاخير انحصر فى ثلاثة انواع اى ثلاث مجموعات من الحروف :

الواحد : للباء والتاء والثاء والفاء والقاف والكاف واللام .

والآخر للجيم والحاء والخاء والراء والزاى والميم .

والثالثة للسين والشين والصاد والضاد والنون .

وهكذا نزل عدد الحروف الى تسعين حرفا بما معها من الحركات والعلامات الخطية ، والنقط والارقام والحروف ذات النقط الثلاث (ج ب ف) وهكذا توصل المغرب الى حل مشكلة الكتابة فأصبح القارىء يجد نصوصا مشكولة مضبوطة حتى يتعود على النطق الصحيح للكلم العربية .

وسيمكن حل مشكلة آلة الطباعة ، اذا أمكن صنع آلة تحمل بالعربة ، وانخفض ثمن طابعة اللينوتيب وأصبحت كتابة العربية وقراءتها سهلة التناول ، سواء بالخط او بالطباعة .

ومنذ سنة 1958 ، اشترت وزارة التربية الوطنية من السيد الاخضر حقوق استعمال طريقته ، وستجعلها واجبة فى الكتب المدرسية اولا ، ثم بعد ذلك يمكن أن تصبح اجبارية فى الادارة وغيرها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۞

المصطلحات

أما فيما يخص المصطلحات والنحو فقد أسست وزارة التربية معهدا للنظر في النهوض بها ، وذلك عن طريق وتجريد التراث العربي لاستخراج الالفاظ العربية التي تعنى بمسائل الحضارة ، وهو عمل جليل وشاق لما يستوجبه من مطالعات وحفريات في بطون الكتب والمعاجم المبعثرة .

وهذه البداية التي بدأ بها المعهد علمية بكل معنى الكلمة ، لانه يجب قبل كل شيء أن نعرف ما عندنا مما نحن محرومون منه ، ومتى تم الاستقصاء وخرجنا باحصاء شامل ، عرفنا ما ليس موجودا في العربية من الكلمات الدالة على مدلولات لها في لغات العجم اسم او أكثر ، وحينئذ ننتقل الى وسيلة سد الفراغ عن الطرق المستعملة عند الاجانب من تعريب ونحت واشتقاق أو رد العامي للاصل أو اتباع ما استعملته العامة مما ليس له أصل .

لقد سبق المغرب الشعوب العربية للعناية بهذا الموضوع وبحثه ، اذ لم يسبق لبلد عربي قبل المغرب أن اهتم بأمر تجريد التراث لاستخلاص عيوبه ، وانما يقع ذلك عرضا في اثناء البحث للمعاني عن انسحابها والمدلولات على الكلمة الدالة عليها .

وهذا الجانب هو قسم المصطلحات العام ، اى الذي يتناول البحث في معجم الحياة اليومية وما يعبر به كل فرد وكل شعب عن الاشياء المحتاج اليها من لباس وأثاث منزل وأدوات عمل ومرافق وتعابير جديدة او مدركات عصرية .

وقد لاحظ المعهد ان المغربي يجد في اللغة الاجنبية ما يرضيه ولا يجد في لغته ما يلبي رغبته ، وحينئذ يحار بين استعمال اللغة الاجنبية او اللغة العامية مخلطا بينهما . مع أن هنالك في العربية ميدانا للعثور على الكلمات الصالحة لتأدية أفكاره ، ولكن اللغة جزء لا يتجزأ او كائن حي واحد فان اعتنى به عاش وان ترك ضعف او مات .

ازدواج اللغة

وهذا الوضع الذي يثيره البحث في معهد المصطلحات والنحو المغربي ، ينتقل بنا الى البحث فيما سماه بعض الباحثين العرب بالازدواج في اللغة .ويعنى به هذا التعدد الذي أشرنا الى وجوده في كل بلاد العرب ، وهو اللغة الفصحى واللغة العامية . ولتمييز الاولى عن الثانية طريقة النطق ، ثم طريقة تركيب الجمل ، الى جانب الإختلاف في المعجم احيانا . وقد اوضح جورج زيدان فضل القرآن الكريم على بقاء وحدة اللغة العربية بين أقطار العرب ، اذ لولاه لاصبح اختلاف اللهجات الاقليمية التي تتطور كلماتها بحسب الاقليم الذي تنشأ فيه اختلافا عميقا في اللغة مثل الاختلاف الذي أصاب لغات الغرب المشتقة من اللاتينية مثلا .

على أن وجود اللغتين يؤدي حتما الى وجود تفكيرين لأن اللغة هي قوالب الافكار ، فكما أن هنالك لغة عامية يلزم أن يكون هنالك تفكير عامي او شعبي كما يلزم أن يكون بجانب اللغة الفصحى التي هي للخاصة تفكير خاص بطبقة راقية ، وخطورة المسألة في وقوف التفكير الشعبي عند محاولة الكلام بالفصحى والتفكير بها .

ثم ان العامية في كل اقليم تؤثر على أساليب الكاتبين بالفصحى ، فيؤثر كل كاتب الكلمات او الاسلوب الذي يوجهه فيه عقله الباطن لانه يتذوق

أكثر من كل كلمة او أسلوب آخر . وهذا مـا يجعل اخواننا العرب لا يقدرون الترسل المغربي أو الاستعمال المغربي لبعض الكلمات او الجمل ، بينما نجد نحـن غرابة في بعض أساليب او كلمات الكتـاب اللبنانيين ونفاضل بينهم وبين الشاميين او المصريين على قدر مـا يقتربون منا او يبتعدون ، وقد وصل الامر الى حد ان مؤلف الروائع حكم على المغاربة بالعجمة مطلقا لانه لـم يستطع ان يعلل المغايرة التي في اسلوب ابـن خلدون لاسلوب السيد الفاضل ، مع أن الفيلسوف المغربـي يرجع الفضل في توجيه الانشاء العربي هذه الوجهـة التي تلقفها المحدثون وحسنوها ، ولولاه لبقيت العربية غارقة في طرائف السجع المتكلف والتراكيب الجوفـاء التي يصدق عليها تعبير المعرى : أسمع جعجعة ولا أرى طحنـا .

وقد انصف الاستاذ الزيات في كتابه (دفاع عـن البلاغة) حين قال وهو يعرض التطـور الـذى اصاب العربية : وآثر النابغون مـن خريجي المدارس المدنية الحديثة الذين وقفـوا على آداب الفـرنجة الطريقـة الخلدونية على الطريقة الفاضلية لجريانها مـع الطبـع وملاءمتها لروح العصر ومشابهتها لاساليب الغـرب فظهرت مهذبة عذبة فيما كتب قاسم أمين وفتحي زغلول ولطفي السيد ومن جرى مجراهم الخ .

وكما ان للعامية نفوذا على الفكر اللغوى العربي فلها نفوذ على النطق ايضا حيث نجد اخـواننا المصريين ينطقون الجيم جيما معقودة بينما صحراء المغرب وصعيد مصر ينطق القاف معقودة . واذا كانت هذه تتفق مـع استعمال بعض العرب الذين قال شاعرهم :

حج الحجيج وناقتي معقولة يارب يامولاى فك عقالها

فان الجيم المعقودة عامية محض ، كما أن من العامية نطق القاف آفا وعدم التفرقة بين الشين والسين ، او الجيم والزاى .

ومن الملاحظ أن هذه العثرات في العامية تتطـور وتنتقل من حرف الى آخر .

فقد كان المعروف في فاس هـو الخلط بين السين والشين ، ولكن هذه الآفة ذهبت لتحل محلها آفة أقبح منها وهي نطق الهمزة قافا فيقـال القمير عوضا عـن الأمير والقرقان عوضا عن القرآن .

فاذا أضيف الى هذا الاختلاف الموجود في الكتـابة وفي الارقام وفي الشهور الاعجمية مـا بـين المشرق العربي والمغرب العربي خرمت أضرار الازدواج على وحدة اللغة وما تحدثه من اقليمية في الفكر وفي الاتجاه .

فما هي الوسيلة اذن لتكوين لغـة عربية موحـدة وسليمـة ؟

لقد كانت المدارس الفرنسية في الشرق في مقدمة من حمل الدعوة للاستغناء عن العربية الفصحى وكتابتها والاستعاضة عنها بالعامية وبالحروف اللاتينية . وقد سبق أن نقلنا تراجع المسيو ماسينيون عن هذه الفكرة مع انه حمل رايتها زمنا ، ومن جملـة المحاولات التي خرجت من المدارس الفرنسية في لبنان ، الكتاب الذى نشرته المطبعة اليسوعية وألفه الأب رفائل نخله باللغة الفرنسية مع كتابة النصوص العربية بالحروف اللاتينية وغايته وضع قواعد ثابتة للهجة العامية في لبنان .

وكذلك الكتاب الذي أخرجته المطبعة اليسوعية أيضا من تاليف الاب لاى اليسوعي وسماه التحفة العامية في قصة فنيانوس وهي رواية باللغة العامية وتمثل ناحية هامة من حياة اللبنانيين (I)

ولقد أثار هنرى بيريس وضع الادب الشعبي العربي ودعا ايضا الى الاستعاضة بالعامية عن الفصحى وكـان الدكتور هيكل في مقدمة الذين تأثروا أول عهده بهـذه الدعوة فدعا الى كتابة القصص والتمثيليات باللغة العامية ومن سوء الحظ أن قلـة تشجيع الحكومات للتمثيـل والسينما وعدم الاهتمام بتوجيههما الوجهـة الصحيحة حمل القائمين عليهما أن ينزلـوا الى مستوى الرجـل العادى فيكتبوا له بالعامية ويستعملوا كل ما يمكن من تملق للغرائز وللاهواء . حتى أدى الامـر الى اعتقـاد الكثيرين من اخواننا العرب بأن الشعب لا يفهم الفصحى او لا يتذوق مغازيها او انها هي غير صالحة للاعراب عن النكتة المقبولة والفكرة الشعبية المطلوبة . والـواقع أن القضية قضية اتقان وابداع في الفن ، فقد شاهدنا عدة

---

(1) كتاب التبشير والاستعمار ص 221 تأليـف مصطفى الخالدى وعمر فروخ .

روايات مما كتبه رجال الطليعة كنجيب حداد ومطران وزيدان ومصطفى كامل وعبد الله نديم باللغة الفصحى تمثل فى بلادنا وفى الشرق فيقبل عليها جمهورنا أكثر مما يقبل اليوم على القصص العامية على الرغم مما فى هذه من تهريج وتملق للغرائز .

وقد دعا الاب نخلة اللبنانى الى ما اختار تسميته بالادب الشفوى اى غير المكتوب ويعنى به أدب العامية . وعوضا عن ان ينبه الى مجرد الاهتمام باستخلاص الروح الشعبية من أمثال العامية وأغانيها ونكاتها التلقائية فقد أحب ان يسميه أدبا مع أن الادب لا تكفى فيه التلقائية بل لا بد من الفكر والمعرفة وهو ما يخرج عن نطاق العامة والعامية .

ويلاحظ فانسان مونطى ، ان المناقشة بين أنصار العامية والفصحى قد انبعثت من جديد على اثر مجهود الديموقراطيات الشعبية لرفع مستوى الفولكلور وما أحدثه من تاثير على شاطىء النيل اذ أصبح من بين الكتاب اليساريين انصار الادب العامى ويقول مونطى : ان للمسلمين فى روسيا اليوم 17 لغة (وطنية) ليست فى الحقيقة الا تجسيما كتابيا للهجات المتكلم بها . وقد الغيت اللغة العربية من الداغستان مع انها كانت لغته الثقافية حتى سنة 1914 ، وقد أراد ستالين حسب تعبيره الشهير فى 18 مايو 1925 تأسيس ثقافة ذات شكل وطنى على أن تكون ذات محتوى اشتراكى . (1)

وقد بحث أخيرا سلطانوف مسألة تكييف اللغة القومية فى البلاد العربية ولا سيما فى مصر سنة 1955 فدعا الى استعمال العامية فى كل ميدان لم تدخله بعد (المقال والخطابة السياسية والمآسى) (2)

ودعوة سلطانوف هذه ، أخطر من الدعوات السابقة لانها لا تريد رفع مستوى العامية للاحتفاظ بما فيها من معان شعبية ، ولكن يراد بها فصل الجمهور عن الفصحى ومحتواها واعطاء العامية محتوى خاصا وجديدا . وهو أشبه بالاصلاح الذى قام به الامام الجزولى فى المغرب لادخال التصوف والطرقية فى صميم الشعب فى عصره وهو ما يقوم به فريق من المبشرين المسيحيين فى الكونغو والجابون ، حيث يقيمون حفلات شعبية باللهجات المحلية الغاية منها نشر الروح الكاثوليكية فى عادات وحياة السود .

على أن هذه الدعوة لم تجد قبولا من الشيوعيين أنفسهم فقد احتج الصينيون ضدا عليها بالصيغة الآتية : (ان حجج الذين يدعون لاستعمال اللهجات هى ما ياتى : حيث اننا نكتب حوادث لفئة ما ، ويستعمل الناس فيها نوعا من القول . فيلزم من ذلك أن لن تكون له قوة التعبير الا اذا كتبت وأمكنها الاعراب عن الاحساس بالحقيقة ، وقد كتب لاوشو أمن المجاز ؟ ان أحدا لا يفهم . واذا لم يفهمه أحد فهل يمكن الحديث عن المجاز . ان الاختيار او العبث بأخذ العامى يحكم بالنقص من قيمته لانه يلزم العرب أن يخلقوا أدبا جهويا » (3)

ويقول مؤلفا كتاب (التبشير والاستعمار) (4) ما يلى:

« وبعد أن قامت فكرة (الكتابة فى العامية بالحرف اللاتينى ، رجعت من جديد وتحت ستار «تسهيل اللغة» الى الاستيقاظ ، وآخر ما ظهر فى هذا الباب (تبسيط قواعد العربية وتبويبها ع لى أساس منطقى جديد) تأليف الدكتور أنيس فريحة» ولكن يبدو أن الدكتور أنيس فريحة يريد أمرا آخر . يريد أن يجعل من اللغة العربية الفصحى والحرف العربى مشكلتين يستحيل حلهما ، ولذلك هو يرى أن ينتقل العرب الى الكتابة العامية بالحرف اللاتينى ، انه يبسط رأيه هذا على منحنى كبير وشىء من التهكم كان يجب أن يترفع عنه من يدعو الى أساس منطقى جديد : انه يقول :

« يطالب مثلا بعض متبنى الحرف اللاتينى تسهيلا للقراءة وتخفيضا لنفقات الطباعة . ونحن من المومنين بهذه النظرية ، ولا نرى حلا للكتابة الا بتبنى الحرف اللاتينى وضبط الكلمات فيه مرة واحدة ... واما الذين لا يرون مشكلة فى الامر ، وهم من لم يمارسوا التعليم فيقولون : هؤلاء جماعة خارجون على العروبة وعلى الاسلام . ويطالب بعض الناس بتيسير قواعد العربية لتقرب من العامية أو لرفع العامية لتقرب من الفصحى فيتساءل البعض الآخر وهل العربية معقدة لنبسطها او

---

(1) مونطى ، كتابه عن مسلمى روسيا ص 83
(1) مونطى «العربية العصرية» ص 79
(2) مونطى ، العربية العصرية ص 78
(2) التبشير والاستعمار ص 223

سهلة لنيسرها ؟ انما أنتم جماعة خارجون على العروبة وعلى الاسلام .

« ولما ذا يثور الناس كلما طالبنا بالتيسير ؟ لما ذا يتهموننا بالخروج ؟ الامر بسيط لا يدركون ان هنالك مشكلة ، ولما ذا لا يدركون : الامر بسيط الجهل ، الجهل عدو العرب الاكبر» .

وعقب خالدى وفروخ على كلام فريحة ان الدعوة الى العامية والى الحرف اللاتينى معناها :

1 – خلق مشكلة لا حل مشكلة .

2 – قطع حاضر العرب ومستقبلهم بماضيهم .

3 – تنفيذ لمآرب تبشيرية استعمارية لأن الأمر بدا بذلك ، ولا يمكن أن يكون سبب هذه الدعوة الآن غير سببها بالأمس .

4 – ان كثيرا من كتاب الدكتور فريحة لا صلة له بتبسيط العربية على الاطلاق ، كجدول ضمائر الاشارة مثلا ، ان الدكتور فريحة يقترح لاسماء الاشارة (ص 33 – 34) عددا أكبر من العدد الذى تثبته كتب النحو المدرسية . ان الدكتور فريحة يريد أن يبرز أشكالا كثيرة لضمائر الاشارة كما يسميها هو لكى يحسم مشاكل اللغة العربية الفصحى ومشاكل الكتابة بالحرف العربى توصلا الى الدفاع عن رأيه فى اتخاذ العامية لغة كتابة واحلال الحرف اللاتينى محل الحرف العربى فى الكتابة العربية . (2)

ومن الذين ردوا على هذه الدعاية التبشيرية طه حسين فقال :

« أحب أن ألفت نظر أدبائنا الذين يطالبون بالالتجاء الى اللهجات العامية الى شىء خطير ما أرى انهم قد فكروا فيه فأحسنوا التفكير ، وهو أن العالم العربى الآن وكثيرا من أهل العالم الشرقى كله يفهم العربية الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه ، وللتواصل الصحيح اللغوى بين أقطاره المتباعدة ، فلنحذر ان نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمضى كل قطر فى لهجته ، وتمضى هذه اللهجات فى التباعد والتبادر ، ويأتى يوم يحتاج فيه المصرى الى أن يترجم الى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ويحتاج أهل سورية ولبنان والعراق الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم ، كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين .

ولنسأل انفسنا آخر الامر ايهما خير أن تكون للعالم العربى كلمة واحدة وهى اللغة الفصحى يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق ، أم تكون لهذا العالم لغات بعدد الاقطار التى تأتلف منها ، وان يترجم بعضه عن بعض ، كما يترجم بعض الاوربيين عن بعض ، أما أنا فأوثر وحدة اللغة . وأثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الامر وأرى غير متردد أن وحدة اللغة هذه خليقة بأن يجاهد فى سبيلها المومنون بها وبأن يضحوا فى سبيلها بكل ما يملكون » . (3)

ولنسأل انفسنا نحن مع طه ، لو لم يكن انتاج العرب فى المشرق فى الحقبة الاخيرة حيث كنا لا نزال تحت ضغط الاستعمار الذى يمنعنا من كل حرية فى النشر وفى الحركة ، ما ذا كان سيصبح عليه مصير اتجاهنا ؟ ماذا سيصير لو تركنا الثقافة الاسبانية أو الفرنسية وحدها ؟

واذن فالمعركة قائمة مع الذين يشايعون المستعمرين فى الدعوة الى التخلى عن الفصحى واستعمال اللغة الاقليمية العامية . واذا كان سببها الاصيل هو ما يرمى اليه المستعمر من تفرقة وفصل بين العرب وبين تراثهم فان الذين انتحلوا رأيه من العرب لم يأخذوه عن خيانة أو رغبة فى خدمة الاجنبى ، كلا بل هنالك أسباب أخرى فى مقدمتها الحتمية التى جعلتهم ييأسون من لغتهم ويعتقدون أنه لا سبيل الى التقدم الا عن طريق اطراحها وخلق لغة جديدة لا نسب لها ، ثم التقليد الاعمى لكل ما وقع عليه التطور فى الغرب ، فهنالك اللاتينية التى كانت لغة المجموعة الاوربية الغربية بما فيها انكلترا قد

---

(1) تبسيط قواعد العربية ص 77 .

(2) التبشير والاستعمار ص 224 .

(3) طه حسين مجلة الحصاد عدد 1 ص 26 .

أصبحت مصدرا تاريخيا للغات الحية الراقية فى الغرب كالفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية ، بينما لم تكن هذه الا وحدات من لهجات وجدها العرب يوم فتحوا اسبانيا وبلاد الغال ، وقد تغلبت فى فرنسا مثلا لغة جزيرة فرنسا وهى المنطقة التى فيها باريز.

ولكنهم حين يقارنون بين العرب وبين اوربا فى عهدها اللاتينى ، وبين عهد هذا اليوم والعهد الذى يريدونه لبلادنا غدا ، انهم حين يفعلون ذلك لا يتعمقون فى دراسة الواقع فى بلاد اوربة نفسها . فهل استطاعت قومية اللغة او اللغة القومية الخاصة ان تمنع من قيام لهجات اقليمية تفرض عليها اللغة الوطنية فرضا بحكم مراد الدستور ؟ هذه واحدة والثانية هل سلمت اللغة الوطنية نفسها فى كل البلاد من وجود عامية تقل او تكثر الفوارق بينها وبين الوطنية اى الفصحى بحسب البلاد والمجتمعات ، وهذه ثانية واما الثالثة فهى هل استغنت اوربا فى مرحلتها الحاضرة عن لغة موحدة بين دولها ؟ وهل لم تشعر اليوم بخسارة التجربة التى قامت بها فى عهود الوطنية الضيقة .؟

فاذا نظرنا الى فرنسا نجد ان بها عدة لغات اقليمية لم يستطع اختيار اللغة الوطنية أن يقضى عليها ، فثم لغة الباسك التى يتكلم بها قبائل الواسكون القاطنون فى البلاد من أقدم العصور وهم الذين سموا اسبانيا بفسكونية . وهذه القبائل يقطن عشرات الآلاف منها فرنسا ونحو المليون ما يزال فى شمال اسبانيا ، وهناك اللغة البروفنسالية وبها عدة لهجات (باتو) وهى لسان سكان القرى فى العمالات الجنوبية وفى ضواحى مرسيليا ، واللغة البروطانية وهى بقية من لغة السلت ويتكلم بها أزيد من مليونى فرنسى غربى فرنسا . وثمة لغة الفلامند ويتكلم بها مئات الآلاف من سكان الشمال ، ومثل ذلك يقال عن اسبانيا والبرتغال وجل اقطار العالم . ويصل الفرق فى هذه البلاد الى حد أن سكان القرى البعيدة لا تستطيع ان تفهم اللغة الوطنية التى يتكلم بها الباريسيون وعامة الفرنسيين الا بحكم الدراسة والتعليم . اذ اللغة الأم بالنسبة اليهم هى اللغة المحلية التى تخاطبهم بها أمهاتهم ويسمعونها فى حياتهم الخاصة . وحينما وقع تدوين اللغة الوطنية اقتصر عليها كلغة رسمية ولم يسمح لواحدة من اللهجات الاخرى بالتدوين ولا اذن للاقاليم حتى باصدار جريدة بلغتهم الخاصة . بل انهم محوا ما كان مكتوبا بلغة الباسك تعصبا منهم للغة القومية ومحافظة على كيانها .

واللغة الفرنسية نفسها على الرغم من كونها أصبحت قومية ورسمية فى كل فرنسا لم تسلم من وجود الفرق بين لغة الكلام الذى يتحدث به عامة الشعب وبين لغة الادب والكتابة ، وذلك مظهر عام لكل اللغات تقريبا . وقد بين بلومفيولد ان لكل لغة ثلاث مستويات عال ومتوسط وشعبى . (1)

ويقول كمال الحاج (2) : « ومن هنا تنبه الكثيرون من علماء اللغة المتبصرين فى أمور الفلسفة أيضا الى هذه الازدواجية فى نفس الانسان . الامر الذى يحتم على كل لغة بشرية ثنائية العامية والفصحى ، لا شك فى أن هذه الثنائية على درجات ولكنها كائنة فى لغات البشر كلهم ، لذا يقول مندريس ما يلى :

ينحصر الفرق الاساسى بين اللغة العاطفية واللغة المنطقية ، فى تكوين الجملة ، هذا الفرق يبين تماما عندما تقارن اللغة المكتوبة باللغة المحكية هاتان اللغتان المكتوبة والمحكية ، تبتعدان فى الفرنسية احداهما عن الاخرى ، الى حد ان الفرنسيين لا يتكلمون اطلاقا كما يكتبون ، ولا يكتبون كما يتكلمون ، الا نادرا لكل حالة اختلاف فى ترتيب الكلمات الى جانب اختلاف المفردات ، ان الترتيب المنطقى الذى تسلك فيه كلمات الجملة المكتوبة يتعطل دائما فى الجملة المحكية قليلا أو كثيرا ، فمن اللغة المكتوبة مثل هذه الجمل :

Il faut venir vite, quant à moi je n'es pas le temps de penser à cette affaire.
Cette mère déteste son enfant.

تتخذ هذه الجمل معظم الاحايين – فى اللغة المحكية صيغة مختلفة كل الاختلاف فيقال :

Venez vite. Du temps, voyons est-ce que j'en ai, moi, pour penser à cette affaire-là. Son enfant ! mais elle le déteste, cette mère (1)

وينقل جوستاف لوبون من كلام بركهارد ما يلى :
« وتجد اختلافا كبيرا ، لا ريب فى لهجات اللغة

---

(1) مونطى ، العربية العصرية ص 82 . (2) كمال الحاج ، فلسفة اللغة ص 238 .

العربية العامية اكثر مما فى اية لغة أخرى على مايحتمل، ولكن لا يصعب عليك ان تفهمها جميعها اذا ما تعلمت احداها ، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التى يتكلم أهلوها بها وهى الواقعة بين مدينة الصويرة ومدينة مسقط . وقد يكون لاختلاف طبيعة البلدان تأثير فى اختلاف تلك اللهجات التى هى عذبة فى أودية مصر والعراق الدنيا ، وجافة فى بلاد البربر وسورية واعظم فرق كما أعلم . هو ما بين لهجة المغاربة فى مراكش ولهجة الاعراب فى مكة والحجاز . ولكن هذا الفرق بين تينك اللهجتين لا يزيد على اختلاف لهجة فلاحى سوراب (جنوب المانيا) عن لهجة فلاحى سكسونية (شمال المانيا) . (2)

وقد بين فيراميل ان اللغة الباريسية تقترب فيها لغة القول من لغة الكتابة الى حد لا يمكن معه ادعاء الازدواج مثل ما هو فى اللغات الاخرى .

واذن فليس من الضرورى أن يكون هنالك ازدواج بكل معنى الكلمة ، كما ان وجوده لا يستدعى اهمال اللغة الفصحى واحلال العامية محلها ، لان هذه لو حلت محلها لاستدعت فى الغالب تكوين لغة عامية فصحى وأخرى عامية .

على أننا اذا نظرنا فى الاغانى الشعبية وخاصة فى الزجل نجد نوع افتراق بين لغة النظم وبين الكلام العادى الذى يتخاطب به الناس . الامر الذى يبين أن العقل متى تدخل فى القول جدده ورصفه وخرج به عن لغة الكلام المعتاد .

وفيما يخص المسألة الثالثة ، نجد اوربا الان بعد أن قطعت مرحلة الوطنية الضيقة تشعر بحاجة الى اعادة الوحدة الاوربية لما كانت عليه فى الماضى ، وهى تبحث فيما تبحث مسألة تكوين لغة موحدة يتعلمها الابناء الاوربيون بجانب لغتهم القومية حتى يمكن التخاطب بها بين أبناء أوربا جميعا ، وذلك ما قام به الروسيون فى الاتحاد السوفياتى حيث جعلوا لغتهم الموحدة لمختلف القوميات السوفياتية . ولو انهم كانوا احتفظوا باللاتينية كما كانت عليه قبل عهد القوميات لوجدوها الان سببا فى نجاح وحدتهم وعاملا قويا فى اثبات كيانهم .

ولقد حاول بعض الاجتماعيين ومن بينهم هانوتو أن يؤكدوا عدم حاجة المجموعة البشرية الى لغة واحدة لكى تتحد ، معطيا الاتحاد السويسرى كدليل على ذلك . واذا كان هذا صحيحا من الناحية القانونية ، فان المعنويات تظل مفككة . والاتحاد السويسرى لو أنه أصيب بأزمة خارجة عنه ، وزالت عنه الحماية الدولية التى تقضى بها المحافظة على التوازن بين دول الغرب الكبرى ، لو وقع ذلك وعملت كل دولة مجاورة لاحدى الوحدات السويسرية على جرها اليها لما وجدت صعوبة فى أن تندمج تلك الوحدة مع البلاد التى ترتبط واياها برباط اللغة والدين . ولقد وقعت على اثر مأساة الكونغو رجة فى بلجيكا عرضت وحدتها للافتراق ، اذ تكونت فى كل من والونى والفلامنك حركة محلية هددت بتكوين حكم ذاتى خاص .

فاللغة اذن شىء ضرورى كعامل ربط وتوحيد بين العناصر التى تتكون منها الامة أو الامم التى يتكون منها الاتحاد ، وذلك ما عناه جوليان بانـدا فى مقاله عن الروح الاوربية اذ يقول :

اذا كنا نعمل على أن نزود الغرب بوحدة روحية ، علينا أن نجند الحملات فى سبيل انشاء لغة غربية ، أعنى لغة تضاف الى لغات مختلف القوميات الغربية ، بدون ان تحدث التخريب فى هذه اللغات . يكون مثلها مثل الفرنسية التى أضيفت الى البيكاردية والبروفنسالية ... ومثل الانكليزية التى أضيفت الى الغالية والايكوسية ، هذه اللغة يتلقنها الاولاد جنبا الى جنب مع لغة بلادهم . مثلهم مثل اولاد عائلات مثقفات كثيرة فى الغرب ، يتعلمون الافرنسية لمدة طويلة بالاضافة الى لغتهم القومية . (1) وهكذا نرى أن اوربة التى يريد القوم أن يقتفوا اثر افتراقها ويطالبوا بأن تكون العربية لاتينية والعامية لغة كل اقليم من أقاليمهم ، رجعت الى نفسها تبحث عن وسيلة تنقذها من الفرقة وتجمع شملها فلم يتم لها ذلك بغير البحث عن لغة

---

(1) فاندريس ـ اللسان ص 171.

(2) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ترجمة زعيتر ص 532 . ونقل ذلك كله الحاج ص 239 من فلسفة اللغة .

الربط التي تصل بين وحداتها وتكـــون هي غايتها . لا ادري كيف يفكر بعض العرب بعد ما شاهدوا هـــذه التجارب الاجنبية بالتخلي عن الفصحى وتكوين اللغـــة الاقليمية الخاصة ؟ مع أن المجهود الذي نبذله لتعميم الفصحى وتوحيد التعليم بها أقل بكثير مما يتطلبه خلق لغة جديدة من ألفها الى يائها ، ان كل ما يتطلبه منـــا الحال ، هو اصلاح في الاساليب وعدم شغل أطفـــالنا باللغة الاجنبية قبل أن يكتمل وعيهم بلغة الام .

ثنائية اللغة

وهذا ما يدور بنا عودا على بدء . للحديث عن ثنائية اللغة ، أو على التحقيق عن العناية التي نوليها في كـــل مراحل تعليمنا للغة الاجنبية . ولست في حـــاجة الى تكرير ما قلته في صدر هـــذه المحاضرة مـــن ضرورة احتكار الوقت في التعليـــم الابتدائي للغـــة العربية ، واعطاء القسط المعقول للغة او اكثر من اللغات الاجنبية في التعليم الثانوي او العالي ، مثلما هو الواقع في جميع البلدان الاجنبية . وان من يتجول في الدول الراقية مثل انكلترا او امريكا وروسيا واسبانيا يشعر تمـــاما بأن الاغلبية الساحقة في هذه الامم لا تفكر في اتقان غـــير اللغة الام ولا تشغل نفسها بغيرها ، بل انهـــا جميعا تفرض عليك أنت الذي تقدم لبلادها أن تخاطبها بلغتها، أما نحن فاننا بعكس ذلك نعتبر ضعفا في ثقافتنا وفي وجودنا أن لا نعرف لغة المحتلين لنا . لقد عمل الاجنبي لذلك مدة طويلة اذ كان يقصر كل الوظائف على مـــن يتقن هذه اللغة . أما اليوم فمن الخذلان أن نظل حيث وضعنا الاجنبي .

لقد لاحظ أحد خبراء التعليم اللبناني السيد قيصر نصر ان ثنائية اللغة تكون عند الطفل انحطاطا نفسيا. ويقول مونطي : الواقع ان المجهود الذي يطلبه اللسان الثاني ينقص جدا من استعداد الطفل العقلي الذي كان يجب أن يقصر على دراسة اللسان الاول . ويقول لوريه أحد علماء النفس الفرنسيين (ان نمـــو الطفـــل العقلي لا يتضاعف ، ولكن ينزل الى النصف ، وبما أنـــه غير قادر على التفرقة بين اللغتين ، يحفظ الاثنـــين دون أن يتملى بعبقرية لغته الخاصة .

ولكن التجربة الاستعمارية أكثر من ذلـــك ، اذ انها أدت الى انحطاط العربية والاكتفـــاء باللسان الاجنبي حتى وجد مثل الشرايبي الذي كـــان يطالب بمخاطبة الشعب بالفرنسية في المغرب وعديد مـــن اللبنانيـــين الذين آثروا الكتابة بالفرنسية او الانكليزية غير عابئين بمن ينتقدهم من أبناء وطنهم . ومثل محمد عكون الذي يطالب في اثناء الكفاح القومي في الجزائر بثلاثية لغوية في الشمال الافريقي ، العربيـــة والفرنسية واللاتينية ويأسى لتاريخنا الثقافي بزعمه . (2)

فتقهقر اللغة العربية ازاء لغة المستعمرين شيء طبيعي ما دام كل وجوه النشاط الانساني مقصورا على اللغـــة الاجنبية وما دامت العربية تعـــامل معاملة الايتام في مأدبة اللئام ، وذلك ما اعترف به وليام مرسي في هذه الفقرة التي نقلها عنه مونطي في كتاب العربية العصرية. والتي يعبر بها عما يشعر به من حال المغرب العربي : انه ليس عمليا ولا منطقيا وقليلا ما يقع ، أن يبقى لسانا تعبير عن حضارة متعايشين وقتا طويلا في بلد واحد ، فاذا كان المتزاحمان يملكان حرمة واحدة ويعبران عـــن شيء واحد بصفة محسوسة ، ويعرب عنه جيدا الواحد والآخر ، فقد تساعد أسباب عاطفية على اطالة تضييـــع هذه القوى . أما اذا كانت احدى اللغتين لسان الحاكمين، وهو الذي يفتح الباب للدخول الى حظيرة حضارة عصرية كبرى ، فمن الواضح أن تقترب التعبيرات المكتوبة مع التعبيرات المحكية للفكر الى أقصى ما يمكن، بينما يبقى الآخر لغة المحكومين يعبر في وسط كتابة عن مثالية من العصور الوسطى، ويختلف حين يكتب عنه حين يعبر. فان وضع اللغتين يصبح حينئذ غـــير متساو . فيستطيع الاول ان يرجع الثاني القهقرى) ويبني على ذلك « جان ليسرف » ان تقهقر العربية ازاء لغة أو أكثر من اللغات الاجنبية يعني تقهقر الفكرة الوطنية . وفكرة الوطـــن العربي تمثل بـــدون شك فكـــرة القـــوة بـــل أقـــول فكرة شديدة ، ويترتب على ذلك أيضا تقهقر بالنسبـــة الى التقـــدم العصري للجماعة ، فيكون ذلـــك حـــلا ارستوقراطيا بكل معنى الكلمة لان اللغات الاجنبية من

---

(1) تعريب كمال الحاج .

(2) أنظر جريدة العمل التونسي بالفرنسية الصادرة في 6 يناير 1958 .

المستفخرات (لوكس) التى لا يستطيع الجمهور أن يؤدى ثمنها ، (3)

تلك شهادات قيمة من شخصيات فرنسية ذات تجربة استعمارية خطيرة .

أما تجربتنا نحن فهى أخطر من هذا . انها ضعف فى المقدرة القومية على الانتاج مطلقا . ان من ينظر الى حالة الثقافة فى المغرب العربى يشعر بمقدار النقص الذى يعانيه حملة الشهادات العليا فى وطننا . فاذا استثنينا قلة يسيرة من الذين يكتبون ويؤلفون بالفرنسية او الاسبانية وعددهم فى تونس والجزائر والمغرب يعد على الاصابع ، وانتاجهم لا يتجاوز طور المحاولات التى يشجعها الاستعمار ويفخر بها ، اذا استثنينا اولئك ما ذا نجد ؟ فراغا كاملا فى الانتاج ، مع أن عدد المثقفين الحاملين للشهادات العالية من أرقى الجامعات فى فرنسا وغيرها يعد بالآلاف ، فلو قارناهم بمثل عددهم من أبناء فرنسا ، لوجدنا الآخرين اكثر انتاجا وأقوى تفوقا فى ميادين العمل والتنظيم . ولو قارناهم بمن هم مثلهم فى درجة الشهادات من اخواننا فى مصر مثلا ولكنهم درسوا فى الابتدائى والثانوى على الاقل باللغة العربية لوجدنا هؤلاء ينتجون اكثر من الأولين . هذه حقيقة مرة نلمسها فى مجتمعنا ، ولا يمكن أن نعللها بعلة غير كون الانسان لا يستطيع أن يملك زمام اللغة الاجنبية الى الدرجة التى تملك عليه أفكاره وقلبه وحتى عقله الباطن . وهو يعيش فى بيئة أخرى غير بيئة تلك اللغة ويحلم بآمال وأمثلة عليا غير التى تقدمها له تلك اللغة .

ان اللغة ليست وسيلة من وسائل التعبير ، ولكنها غاية .

لأن الكلمة ، هى مصدر الالهام ، وهى اذا لم تخرج ممتزجة بالروح التى تصنعها فلن تكون الا كلمة لا محتوى لها وصدى لطبل أجوف يرن فى الفضاء ثم يغيب فى العدم المحض الذى ليس له ثبات .

واللغة الاجنبية تأخذ الانسان ، ولكنها لا تستطيع أن تعطيه نفسها فهو يظل مأسورا بيد من لا يرغب فيه ولا يمتزج بوجوده . انه يظل فى عالم المقعدين الذين يأنسون من نفسهم القوة على النهوض فلا تعينهم الآلة .

لا يجدون الآلة التى هى لغتهم الاصلية ، ولا تقوم الآلة العوض الا بما تقوم الارجل الصناعية فى النهوض بذات المشلول .

اننا سنظل بدون ثقافة ما دمنا لا نتعلم ونتثقف باللغة الام .

ومع العربية سنصبح المثقفين المنتجين كما كان أجدادنا الاولون .

لقد وسعت العربية كل هذه الكتب التى تمتلئ بها خزائن الشرق والغرب ولقد كان المغاربة فى مقدمة المؤلفين والكاتبين ، يوم لم تكن لغة درس وعلم غير لغة الضاد .

أما اليوم فاننا ذلك المجتمع غير المنتج ، لاننا مستعجمون وعواطفنا عربية .

العلاج

ونعود الى السؤال ما هو العلاج اذن ؟

لا شك أنه قبل كل شىء فى المحافظة على الفصحى، ولكن ما هى الفصحى عند التدقيق ؟ يقول البعض ان الفصاحة لا تعنى الكلمة واصلها وتطورات استعمالها ، وانما تعنى الجملة وموقعها من الاعراب اى حال أواخر الكلم . يقول كمال الحاج :

« وعلى ضوء هذا التعريب للفصحى المبنى على النحو ... أى الاعراب ... تصبح كل كلمة قابلة لان تصير فصيحة بشرط ان ندخل فى جملة مفيدة ، هى عامية اذا استعملت فى ترتيب يقوم على الكلمة ، وهى فصيحة اذا استعملت فى ترتيب يقوم على الجملة وارتبطت بسابقات لها ولاحقات بحيث تنشأ الوحدة الاعرابية او النحوية .. ان كلمة «صاج» فى خاص مبناها ليست عامية ولا فصحى ، هى عامية فى «الصاج عالنار» وهى فصحى فى «الصاج على النار» (4) ويقول بعد ذلك : لنفرض أن هذه المقاييس النحوية قد الغيت من لغة العرب أتستطيع أن تتصور ممكنا بعد ذلك حدوث فهم للكلمات ؟ اللغة ليست حروفا بمعزل عن الالفاظ ولا ألفاظا بمعزل عن الجمل ، ولا جملا بمعزل عن البيان . اللغة هى كل هذا دفعة .. فاذا قضينا على الروابط وعلى العوامل أى على المقاييس النحوية .. ما ذا سيبقى من

---

(3) مونطى ، العربية العصرية ص 87 .

(4) كمال الحاج ، فلسفة اللغة ص 236 .

اللغة ؟ لا شيء ، ندور اذ ذاك في ظلام بهيم . يقول الامام عبد القادر الجرجاني بصدد النحو ما يلي :

ان الالفاظ مغلقة على معانيها ، حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها ، وان الاغراض كامنة فيها ، حتى يكون هو المستخرج لها . وانه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه . حتى يعرض ، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم ، حتى يرجع اليه ، ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسه ، والا من غالط في الحقائق نفسه . واذا كان الامر كذلك فليت شعري ما عذر من تهاون به، وزهد فيه ، ولم ير ان يستسقيه من مصبه ويأخذه من معدنه ؟ (1)

وعلى هذا فالنحو وحده هو اللغة ، أما الكلمات فشيء ثانوي ، يمكن أن تكون عرفية من حيثما كانت اذا وضعت في جملة نحوية سليمة . اننا لا نوافق على هذا الادعاء ، لاننا لو أخذنا أية كلمة عامية ووضعناها في وسط الجملة العربية دون أن تتوفر لديها صيغتها العربية ، اي دون أن تكون أصيلة او مندرجة تحت أصل من أصول التعريب التي لا بد من مراعاتها في اقتباس الكلمات وانتحالها ، لن تكون الجملة نفسها التي فيها هذه الكلمة عربية ولو كان فيها نحو واعراب .

لقد أخذ بعض الظرفاء من أصحابنا نفسه بالاستهزاء ببعض الذين لا يبالون بالكلمات الصحيحة في استعمالهم من غيرها ونظم بيتا غزليا قال فيه :

«زدمتم » على قلبي (بسباط) هجركم
فكاد من «الفقصا» أن «يتطرطق»

فهل ستصبح «زدمتم» العامية فصحى بمجرد اعرابها والنطق بها (زدمتم) ؟ وكذلك «السباط» ما دام لم يقبل من اول الامر في اللغة . وكلمة «الفقصى» أي الحزن ، والتطرطق ، اي الانفلاق هل تدخل هي نفسها بمجرد هذا التركيب في المعجم العربي ؟ الواقع ان الكلمة هي الاصل في اللغة في البدء كانت الكلمة ومنها جاءت الجملة ، ووقع الاصلاح ليبقى الكلام على وثيرة واحدة ، فكان النحو .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان في لغات العرب القديمة من لا يعرب ومن يختلف في تراكيبه وقواعده عن اللغة المضرية التي قدر لها البقاء وقد امتازت اللغة الحميرية بعدة فوارق منها عدم التزام الاعراب دائما، وقد حفظ لنا هذا المركب الحميري : (ليس من أمبر أمصيام في أمسفر) أي (ليس من البر الصيام في السفر) ومع ذلك اعتبرت الحميرية من اللهجات العربية الفصحى وان لم تكن من المضرية . وليس من السهل معرفة كامل الفوارق التي بين الحميرية والمضرية وفي ذلك يقول ابن خلدون في المقدمة : (ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد – وهي التي بدون اعراب فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد – وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته وتشهد بذلك الانقال الموجودة لدينا خلافا لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها ، كما يزعم بعضهم في اشتقاق الفيل في اللسان الحميري انه من الفول وكثير من اشباه هذا وليس ذلك بصحيح ، ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع مضر ، الا ان العناية بلسان مضر من أجل الشريعة اي القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء ، ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها . ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر » هـ

فهل كان ابن خلدون يريد الاستعاضة عن الفصحى بالعامية ؟ كلا ، وانما كان يريد العناية بالعامية واستقراء حالها فربما يكتشف فيها من قواعد العربية ما لا يفرض الاعراب على طريقة مضر ، وما يتفق مع اللهجات العربية الاخرى . وطبعا فان ابن خلدون لايقبل هذا الا وهو يعطي الاهمية الاولى للكلمات العربية

---

(1) الجرجاني ، دلائل الاعجاز ص 26 ، القاهرة 1331 هـ .

الصحيحة ، التي يجب النطق بها كما كان العرب الاولون ينطقون . ولا بأس من التسامح في الوقف على أواخر الكلمة ، أو الإبقاء على ما يتفق مع استعمال بعض القبائل العربية في أيام السليقة الاولى ، فبنو تميم كانوا ينطقون بحرف المضارعة الاول للمتكلم مكسورا فيقولون في نجتني ، مضارع اجتنى ، نجتني بكسر النون الاولى ولن يغير في فصاحة متكلم بالفصحى أن يتبع طريقة من مثل هذه الطرق العربية .

والامر كما قال الشيخ عبد القادر المغربي : ان احياء اللغة الفصحى بيننا لا يمكن حصوله بمراعاة قواعد النحو فقط ولا بالتزام حركات الاعراب في أواخر الكلمات التي نتكلم بها في كلامنا الدارج ، فان هذا ليس بالميسور ولا المستطاع للجمهور وانما المستطاع هو تطهير كلامنا من الكلمات العامية المبتذلة واستعمال كلمات فصيحة مكانها . فان هذا هو المستطاع وكذلك من المستطاع لنا أن ننطق بالكلمات الفصيحة على الشكل الذي كان ينطق به الفصحاء اي دون تحريف او تحويل في حركات الكلمة وسكناتها وتشديدها والخروج بها من قواعد الصرف وقوانين اللغة . (1)

والحل اذن هو في المحافظة على اللغة الفصحى ، مع العمل على رفع مستوى العامية ليلا يبقى هنالك غير الفارق المعتاد في اللغات الراقية بين لغة الكتابة والخطابة وبين لغة الحديث العادي .

ويلزم لذلك ، الى جانب المجهودات التي تتخذ لتوسيع الفصحى وتيسير أساليب تعليمها ، القيام بتنفيذ المقترح الذي وضعه معهد التعريب المغربي ، وهو استقراء المفردات العامية واستخراج ما يتفق مع الفصحى ، وهذا يستوجب عمليتين فرعيتين .

الاولى ـ تهذيب النطق بالكلمات العامية التي ماتزال محتفظة بشكلها الفصيح فيما لو كتبت ، حتى يصبح استعمالها متفقا مع الاستعمال الفصيح . وهذا موضوع ألف فيه او كتب عنه عديد من القدماء والمحدثين ، كالسيوطي وثعلب وابن قتيبة والبازجي وعبد القادر المغربي وغيرهم .

والثانية ـ رد العامي الى الاصل ، اي البحث عن الكلمات العامية وهل هي عربية انحرفت فترد الى أصلها العربي وتهذب وتشاع وذلك كقولنا ، بابتو أصلها بابته بمعنى كان من حقه ، وهي عربية فصيحة ، أو هي جارية على أصل الاشتقاق العربي وان لم يسمع استعمالها عند العرب وذلك كالعروبي في نوع من الشعر الغنائي يستعمل في مراسلة المتحابين ، وهو نسبة للعروبة اي المرأة حسنة التفل المحبة لزوجها . او هي كلمة دخيلة ومن اي لغة دخلت ، فينظر في أمر قبولها معربة اذا كنا في حاجة اليها كالتلفون ، او ترفض ويدعى الى استعمال ما هو عربي مكانها . وذلك كالبستيون للحصن العسكري . أو هي من الموضوعات الشعبية لمسميات حديثة فتوثر في نظرنا على غيرها وذلك كقولهم الحصار في محل (الدمان) للسيارة ، وهي أفضل من الفرملة والفراميل الجوية مثلا .

علال الفاسي

---

(1) عبد القادر المغربي ، عثرات اللسان في اللغة ، ص 6 .